142854 ـ أقسام الناس في قبورهم ، ومَن يخفَّف عنه ما بعد القبر ومَن يشدَّد عليه؟

السؤال

يوجد حديث عن الرسول صلى الله عليه سلم فيما معناه : (إن القبر أول منازل الآخرة وإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه) . أيضاً : ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن من مكفرات الذنوب : عذاب القبر . فسؤالي كيف يمكن التوفيق بين كلام شيخ الإسلام والحديث السابق ؟ فالحديث السابق ـ بحسب فهمي المتواضع ـ يُخبر أن من يعذب في قبره : فالعذاب الذي بعده أشد منه في المحشر ودخول النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ ، أما الشيخ : فيذكر أن عذاب القبر قد يكون تكفيراً لسيئات العبد ، ومن هذا المنطلق قد ينقطع عنه عذاب القبر ولا يستمر ، وكذلك قد ينجو في المحشر ومن عذاب النار. أرجو أن أكون أوضحت التساؤل بشكل تام .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

الحديث المشار إليه هو ما رواه عُثْمَان بْن عَفَّانَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ) .

رواه الترمذي (2308) وابن ماجه (4267) ، وحسَّنه : الحافظ ابن حجر في " الفتوحات الربانية " (4 / 192) ، والضياء المقدسي في " الأحاديث المختارة " (1 / 523) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه " مسند الإمام أحمد " (1 / 225) ، وصححه المحققون للمسند – طبعة الرسالة – (1 / 503) ، وحسَّنه الألباني في " صحيح الترمذي " .

قال أبو الحسن عبيد الله المباركفوري – رحمه الله ـ :

(إن القبر أول منزل) أي : فهو أقرب شيء إلى الإنسان ، وأيضاً شدته أمارة للشدائد كلها . (من منازل الآخرة) ومنها : عرصة القيامة عند العرض ، ومنها : الوقوف عند الميزان ، ومنها : المرور على الصراط ، ومنها : الجنة أو النار .

(فإن نجا منه) أي : من عذاب القبر .

(فما بعده) أي : من المنازل .

(أيسر منه) أي : أسهل وأهون ؛ لأنه يُفسح للناجي من عذاب القبر في قبره مدّ بصره ، وينوَّر له ، ويُفرش له من بسط الجنة ،

ويُلبس من حللها ، ويُفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ، وكل هذه الأمور مقدمة لتيسير بقية منازل الآخرة .

(وإن لم ينج منه) أي : لم يخلص من عذاب القبر ، ولم يكفر ذنوبه ، وبقي عليه شيء مما يستحق العذاب به .

(فما بعده أشد منه) ؛ لأن النار أشد العذاب ، فما يحصل للميت في القبر : عنوان ما سيصير إليه .

" مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح " (1 / 229) .

وأما كلام شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – المشار إليه في السؤال فهو قوله :

قد دلَّت نصوص الكتاب والسنَّة : على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب : أحدها : التوبة ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ... .

السبب الثامن : ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والرَّوعة ، فإن هذا مما يكفر به الخطايا .

" مجموع الفتاوى " (7 / 487 – 501) ، وينظر أيضا : "مجموع الفتاوى" (10/45) .

ثانيا :

إذا كان الإشكال عند السائل هو فيمن لم ينج من عذاب القبر ، من عصاة الموحدين ؛ وكيف أن عذاب القبر سوف يكون تكفيرا لسيئاته ، مع أن ما بعد القبر وعذابه أشد منه ، كما في الحديث ، فيقال في الجواب عن ذلك :

1-أنه لا يلزم من كون عذاب القبر من أسباب المغفرة : أن تكون المغفرة عامة للذنوب جميعها ، بل قد يكون سببا لمغفرة بعض ذنوبه ، ثم يبقى يعذب ببعضها الآخر ، وعذابه في جهنم لا شك أنه أشد مما مر عليه في قبره ، خاصة إذا كان عذاب القبر قد استمر مدة ، ثم انقطع ، ولم يبق متواصلا معه إلى البعث . ولذلك يقول العبد الفاجر ، أو المنافق ، وهو من أهل التشديد عليه في القبر وعذابه ، يقول حين يرى مقعده من النار : (ربِّ لا تُقِمِ الساعة) رواه أحمد (18063) وصححه الألباني .

2-ولعل مما يقوي ذلك أن عذاب القبر قد ورد في ذنوب معينة ، فيكون تكفيره لهذه الذنوب التي عذب بسببها ، كما لو أقيم عليه الحد في الدنيا .

3- هذا الذي مر في الوجهين السابقين إنما يقال على تقدير ثبوت النص الشرعي بأن عذاب القبر هو كفارة لصاحبه ، فيجمع بين النصوص الواردة في ذلك ؛ أو على تقدير أن أهل العلم يقررون ذلك ، فيوضح به مرادهم ؛ وإلا فنص شيخ الإسلام ابن تيمية المذكور أعلاه ، ومثله نصوصه التي وقفنا عليها في أكثر من أربعة مواضع من كتبه ، لم نر في موضع واحد منها تصريحه بـ (عذاب القبر) وأنه من أسباب المغفرة ؛ بل الذي تم الوقوف عليه هو ما ورد في النص المنقول ، ومثله قوله في

موضع آخر : " ما يبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة وفتنة الملكين .. " " منهاج السنة" (6/146) . وهو ما يقرره ـ أيضا ـ تلميذه الإمام ابن القيم ، حيث يقول ـ في سياقه لنفس الأسباب العشرة لتكفير الذنوب ـ : " ... وبالامتحان في البرزخ ، وفي موقف القيامة.. " انتهى . "إعلام الموقعين" (2/304) . ولا شك أن فتنة القبر ، وضمته ، والامتحان فيه : هي أعم من العذاب الخاص بالقبر ؛ فالمحنة ، وهول القبر وروعته ، وضمته : هذه عامة لكل أحد ، والعذاب بمعناه الخاص الذي هو عقوبة على ذنوب معينة : ليس عاما لكل أحد ، كما هو ظاهر معلوم .

وكما أننا لا نستطيع أن نفهم ، أو على الأقل : لا نستطيع أن نجزم ، بأن مراد شيخ الإسلام هو الحديث عن العذاب الخاص ، لأن ظاهر كلامه ، وكلام تلميذه ، إنما هو على أهوال القبور وفتنتها ، فكذلك لم نقف على نص خاص يصرح بأن عذاب القبر هو تكفير لسيئات من يصيبه.

وحينئذ : فلا إشكال ولا تعارض بين النصوص ، ثم إن الحديث المشار إليه في السؤال لا يشكل على كلام شيخ الإسلام وتقريره ؛ فلا شك أن من نجا من فتنة القبر ، وأفلح في جواب الملكين : قد عجل الله له البشرى في قبره بالتثبيت ، ووعده الحديث المذكور بأن يكون ما بعده أهون له ، وأسهل عليه .

والله أعلم .